الفصل الأول

الـدرعيـة، المنطلق

obeikanal.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

أملاك الدرعية

لم يمض على وفاة «تيمور لنك» سوى أقل من نصف قرن، عندما عاود فاتحو الأندلس احتلالهم لإسبانيا ولمدة نصف قرن آخر. . . وجاء ذلك قبل اكتشاف «كولومبوس» لأمريكا بخمسين عاماً. . . في تلك المرحلة انطلق في عام ١٤٤٦ أحد الأشخاص العاديين من القطيف أو ربما من ضواح تعرف باسم «الدرعية» في زيارة لابن عم له يدعى «ابن درع» الذي كان قد استقر منذ فترة طويلة في منطقة «منفوحة» جنوبي الرياض. كان «ابن درع» هذا زعيم مستوطني «الدروع» وهي الآن مجرد قرى صغيرة مهجورة في «الجزعة» وفي «هجر اليمامة»، وكان هذا الزعيم على ما يبدو ثرياً وله أملاك على طول وادي حنيفة تحتاج إلى عناية وتطوير. وعلى أي حال، قدّم «ابن درع» إلى زائره قطعتي «الغصيبة» و «المليبيد» اللتان تقعان على مسافة اثني عشر ميلاً في أعلى الوادي الكبير والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم «الدرعية» كذكرى لاسم القرية الأم الواقعة بالقرب من الخليج والتي ترعرع فيها مؤسسوها.

لم يعرف بالتأكيد فيما إذا كان الشخص الفعلي الذي تسلم هاتين القطعتين هو «مانع المريدي» الذي كان فعلاً أول من بدأ المراسلة مع ابن عمه من «الجزعة»، أو كان ابنه الذي يُطلق عليه اسم «ربيعة» على أي حال كان «ربيعة» نفسه هو الذي أرسى أسُس ازدهار البلدة الجديدة إذ واظب بشكل ملحوظ على تنميتها، كما أبدى توسعاً عدوانياً على حساب جيرانه. لكن

يتشرف «ربيعة» ووالده مانع في كونهما الأجداد الأوائل لسلالة «آل سعود» والمشار إليهما في الكتب التاريخية. سيطرت تلك العائلة وبشكل ملحوظ ورائع على الساحة في الصحراء العربية على مدى المائتي عام المنصرمة والتي شهدت العديد من الأحداث المتقلبة.

كان «سعود» الذي تسمى الأسرة باسمه والمؤسس الحقيقي للعائلة المالكة هو الحفيد الخامس لـ «مانع»، كما أن الملك الحالي للمملكة هو المنحدر مباشرة من سلالته مروراً بخمسة عشر جيلاً. إلى أن تمكنت تلك الأسرة من الوصول إلى الجيل السابع عشر بأعدادها التي تؤكد استمراريتها لأيام مديدة قادمة أنه لن يطول العمر لأي منا ليدرك أيام تلك الأجيال.

ولسبب ما، لم تذكره السجلات التاريخية للصحراء العربية، كان وادي حنيفة في منتصف القرن الخامس عشر محط أنظار العديد من الناس. كانت أملاك أصحابه في تلك الفترة تمتد على طول الوادي من منبعه في «الحيسية» مروراً بحدود منطقة الخرج، وكانت تلك الأملاك تحت سيطرة قبيلة «آل يزيد الحنيفيين». ويفترض أن هذه القبيلة وهبت القطعتين (المشار إليهما سابقاً) من أملاكها إلى «ابن درع» قبل زيارة «مانع» له. وحدث أنهم باعوا في عام ١٤٤٦ أملاك «العيينة» الشاسعة إلى رجل يدعى حسن بن طوق من ملهم الذي كان الجد الأكبر لأمراء «آل معمر».

كان نجم هؤلاء الأمراء آخذاً في الصعود في سماء الصحراء العربية إلى أن حد من صعوده وأخمده بريق قمر الدولة السعودية الذي كان آخذاً في الظهور والبروز، وكل ما تبقى لـ «آل يزيد» من أملاكهم في وادي حنيفة كان

مجرد أرض من الوادي في أعلى «غصيبة» التي تشتمل على بعض الأطيان إضافة إلى قرية الجبيلة ضمناً.

وكانت قرى «الوصيل» و«الناعمية» مراكز إقامتهم، لكن لم يكن مقدراً لهم حتى الاحتفاظ بهذه الأراضي، إذ بادر «ربيعة - مشتهياً لما لديهم من أملاك - بالقيام بأعمال عدائية ضدهم، وأسفرت تلك الأعمال عن انتصارات تحققت على أيدي ابنه «موسى» الذي قام بشكل عرضي وكاد ينجح في محاولة قتله، ضد والده الذي تمكن منه... فقام «ربيعة» - الذي أصيب بعدة جروح بالغة في جسده - بالهرب إلى «العيينة» وهناك تلقى حسن الضيافة والاستقبال من «حمد بن حسن بن طوق» الذي أصبح صديقاً له.

تشتت جماعة «آل يزيد» قبل انقضاض «موسى» عليهم وأسفر ذلك الغزو عن مقتل ثمانين من أتباعهم، ومنذ ذلك الحين لم يذكر لهم أي أثر يذكر في قصة وادي حنيفة.

وهكذا وعلى مدى جيلين تمكن المهاجرون من منطقة القطيف في أن يصبحوا أسياد تلك المنطقة التي سبق أن مُنح لهم حق اللجوء فيها. وأقل ما يمكن أن يُقال إنهم قوم يتمتعون بغرائز - لا أقول عدوانية - بل إصلاحية تقدمية، في حين أن الأساليب العنيفة والقوية التي استخدموها لتحقيق مآربهم كانت أساليب طبيعية إذا قورنت بالمقاييس السائدة في الصحراء العربية آنذاك.

ومع بدء القرن السادس عشر ومع تولي «إبراهيم» السلطة من والده «موسى» أصبحت هيمنة هذه الأسرة وتفوقها ظاهرة مؤثرة وفعالة في

الوادي باتجاه الجنوب حتى «الجبيلة». كانت هذه المنطقة إضافة إلى الأراضي الواقعة إلى الشمال منها، وكذلك منطقة «حريملاء» الواقعة بين منحنيات مرتفعات «طويق» تابعة لأملاك سلالة «حسن بن طويق» الحاكمة والتي كان - كما يقال - يمثلها في ذلك الوقت «معمر بن حمد» الجد الأكبر لسلالة العيينة الحاكمة والذي تحمل الأسرة اسمه. ذلك بالرغم من أن الفراغ في كتاب «ابن بشر» يسبب لدينا بعض الشكوك حول هذه النقطة.

كانت هذه المناطق أكثر بقليل من مجرد أملاك وأطيان محلية تقع في شريط متواز على طول شواطئ الخليج العربي وضمن مقاطعة «الأعشى» المحاذية لإمارة «أجود بن زامل الجبري العامري». وباستثناء هاتين الحالتين لم تكن في الصحراء العربية أية تجمعات سياسية منظمة، علماً بأنه كانت توجد قرى مستقلة تماماً ومجاورة لهذين التجمعين الأكثر طموحاً. ومثال على هذه القرى ذات الإدارة الذاتية كان هناك «حرمة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٣٦٨ و«المجمعة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٤٢٦، وفي تلك الحقبة كانت الرياض ومنفوحة واليمامة مجرد مناطق أو تجمعات مهمة في التركيبة السياسية للصحراء العربية، كما كان حال بعض تجمعات سدير. ناهيك عن مناطق «القصيم وجبل شمر» حيث تحتوي سجلات نشاطاتها المتوافرة لدينا على بعض الخلل في سرد الأحداث، علماً بأننا سنعثر على كامل الوثائق ووثائق أخرى، وفي الوقت المناسب ستدخل هذه الوثائق في ملحمة الدرعية على نمط شبيه بملحمة «هوميروس» الإغريقية.

وبالعردة إلى السياق الرئيسي من هذا السرد التاريخي الذي نحن معنيون به نجد أن «إبراهيم بن موسى» كان آمناً كحاكم لإمارته الصغيرة من غير تحد

من قبل أية قوة أجنبية، وعاملاً باضطراد على تلبية متطلبات تطلعاته في التوسع فيما وراء شريط حدود إمارته الضيق. قام أحد أبناءه وهو «عبدالرحمن» بتأسيس وتطوير منطقة «ضرماء» إذ كان قد قدر له أن يلعب دوراً بارزاً في الأحداث التاريخية المتلاحقة لتلك البقعة من الأرض، كما كان مقدراً له عن طريق الصدفة أن يعرف بشجاعة باسلة لم تجعله يتكل على أتباعه ممن يؤدون خدمات الأمن والحراسة له. أما ابنه الآخر «سيف» فهو الجد الأعلى لجماعة «أبو اليحيى» التي استوطنت في «أبا الكباش» شمال الدرعية، وهي اليوم منطقة أطلال يكتنفها الغموض وفيها متاريس واستحكامات ذات جدران متصدعة، كما فيها أبراج حصن قديم.

أما الابن الثالث: فكان «عبد الله» وهو الجد الأعلى لجماعة «الوطيب» وفروعها الأخرى والتي بقيت وحتى عصرنا هذا على شكل متشتت وغير لافت النظر. لكن ابنه الرابع «مرخان» يستحق مركز الصدارة بصفته ينبوع الحكم السعودي الذي تفجر عن ابنه الأصغر «مقرن» ومن ابن مقرن «محمد» الذي يعتبر والد سعود الأول.

إذا كان – على ما تبدو الحالة عليه – عبد الرحمن هو الابن الأكبر بين أبناء الأربعة، فإن هجرته واستقراره في منطقة «ضرماء» توازي تخليه عن حقوقه في منطقة الدرعية. وينطبق هذا أيضاً على سيف الذي أسس إمارته في منطقة «أبا الكباش»، التي لم تكن بعيدة عن العاصمة.

وفي تلك الفترة دخلت الاسرة في صراع وثارات وفي اعقاب تلك المرحلة من الصراع بين الإخوة وأحفادهم استطاع ربيعة بن فرحان أن يتولى الزعامة عليهم في الدرعية.

وفي مقالة تاريخية تدوّن حقيقة أن ربيعة قام برحلة حج إلى مكة بصحبة أخيه مقرن في عام ١٦٣٠ ، هناك إشارة إلى أنه كان يُطلق عليه اسم «أمير الدرعية» والجدير بالذكر هنا أيضا أنه في عام ١٦٣٠ (وبالتحديد في الثاني عشر من شهر نيسان) شهدت مدينة مكة المكرمة فيضاناً عظيماً دمر الكعبة، الأمر الذي استوجب هدمها وإعادة بناءها . لم يكن بالإمكان إنجاز ذلك لعمل في أقل من سبع سنوات، وأجل الاحتفال المهيب بمناسبة إعادة بناءها حتى موسم حج عام ١٦٣٦ الذي وقع في شهر آيار . والجدير بالذكر أن ذلك الفيضان أثناء إمارة الشريف «سعود بن إدريس بن حسين بن أبو نمي» .

وعلى ضوء التراخي والفتور الإيماني الذي كان مخيماً عند فجر الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر، تجدر الإشارة إلى الأهمية الدينية التي التزم بها سكان الصحراء العربية على مدى القرون الماضية . فعلى سبيل المثال تذكر إحدى الوثائق التاريخية بأنه في عام ١٥٠٦ توجهت قافلة حجاج ضخمة ضمت ثلاثين ألف حاج من الأحساء إلى مكة برعاية «أجود بن زامل» رئيس تلك الإمارة .

كان قد مضى على موت الموحّد والداعية الديني «ابن تيمية» حوالي قرنين - وبالتحديد في عام ١٣٣٧ - إلا أن تعاليمه بقيت تتأجج في الصحراء العربية . ويزودنا «ابن بشر» بقائمة من مشاهير رجال الدين الذين عاصروا «أجود بن زامل» وأدوا صلاة الميت على جثمان الشيخ «أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد» وكذلك دفنه في منطقة الجبيلة في عام ١٥٤١ . وكان الشيخ أحمد قد تشرب كل تعاليمه الدينية من هؤلاء المشايخ . علاوة على ذلك،

يشير «ابن بشر» أيضاً إلى موافقة السلطان «سليم» العلنية في عام ١٥١٧ على تعيين القاضي الحنبلي في القاهرة في منصب كبير القضاة بمصر، مؤكداً بأن كبير القضاة هذا وكان الشيخ «أحمد بن نجار» وهو آخر كبير للقضاة من أصل عربي صرف. . . وهو أنصاري من قبيلة بني نجار.

في هذه المرحلة من التاريخ كان الأتراك العثمانيون قد احتلوا مصر واستولوا على الخلافة فيها لكنهم لم يوجهوا اهتمامهم بعد إلى الصحراء العربية، بالرغم من أنهم كانوا على أعتابها ومشارفها. قاموا في العقد الأخير من القرن السادس عشر بغزو الأحساء واحتلالها، وظهر هناك «فتاح باشا» كأول حاكم عسكري بعد أن قمع الأتراك وأخمد سلالة «الأجود بن زامل الجبري العامري العقيلي القيسي» الحاكمة وليس هناك أي سجل تاريخي يذكر اسم آخر شخصية في هذه السلالة الحاكمة كما لا توجد سجلات تاريخية تتعلق بأسماء أسلافه وصولاً إلى «أجود» نفسه كما لا توجد سجلات تتعلق بأسلاف هذا الأخير باستثناء «زامل» المفترض أن يكون والده. هذا ولا تتوافر سجلات تاريخية تتعلق بطول الفترة التي حكمت بها هذه السلالة منطقة الأحساء. تمت تلك الأحداث في عام ١٥٩١، أما رحلة الحجيج التالية من الأحساء والتي تتوافر لدينا معلومات عنها، فقد حدثت بعد حوالي أربعين عاماً تحت إشراف «بكر بن علي باشا» الخليفة الأول «لفاتح باشا».

كان علي باشا نفسه الشخصية التي استضافت وبحفاوة لم يسبق لها مثيل شريف مكة «محسن بن حسين بن حسن» إضافة إلى أبناء عمه ظاوي وعبدالمطلب، بمناسبة زيارتهم إلى منطقة الهفوف ضمن حملة في أرجاء

الصحراء العربية.

في هذه الحقبة من التاريخ كانت الحجاز مستقلة تماماً وتتمتع بحكم الأشراف الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حكام مطلقي الصلاحية للمناطق التي تقع بعيداً عن الساحل والنائية عن المدن والتي كانوا يقومون بغزوها إما لأغراض تأديبية أو لغرض إعادة ملء خزائنهم كلما أوشكت أن تنضب. ويذكر «ابن بشر» أن أول غارة من هذا النوع حدثت في عام ١٥٧٨ عندما وصل الشريف «حسن أبو نمي» إلى الرياض على رأس جيش قوامه خمسون ألف شخص، وأمضى فيها وقتاً كبيراً يقتل وينهب، وقبل رحيله عنها عين شخص يدعى «محمد بن فضل» أميراً عليها نيابة عنه، كما ترك العديد من وجهاء الرياض في السجن لمدة عام. وعند إنقضاء العام أطلق سراحهم على شرط أن يدفعوا له الجزية السنوية. وبعد ثلاث سنوات قام هو نفسه بغزو منطقة نجد لكنه استهدف هذه المرة منطقة الخرج، فاحتل المناطق الرئيسية فيها كما احتل المراكز الاستراتيجية في سلسلة التلال المحيطة بها. وقبيل رحيله ترك في هذه المناطق ممثلين عنه ليتولوا شؤون تلك المقاطعات. بدأ رحيله عن تلك المناطق عائداً إلى دياره عندما تلقى أخباراً مفادها أن جماعة «بني خالد» الغزية كانت تعد العدة لمهاجمته والاستيلاء على ماشيته ووسائل تنقله، لكنه ألحق بجماعة البدو هذه خسائر فادحة وهزيمة نكراء لأنه كان متأهباً لها. حدث بعد هذه الواقعة مباشرة أن تمكن الأتراك من إخضاع جماعة بني خالد (كقبيلة من الأحساء) إلى حكمهم، وانتهى حكم «حسن بن أبو نمي» مع موته في مكة المكرمة، وخلفه على منصب أمير مكة ابنه «إدريس» الذي ناب عن أخوه «أبو طالب» في غزو نجد في عام ١٦٠٢.

وعند تبوئه السلطة أقرن «إدريس» معه أخوه «فهيد» وابن أخيه «محسن بن حسين» كوصيين على العرش، وأعفي «فهيد» في وقت لاحق من ذلك المنصب في حين بقي «محسن» متعاوناً مخلصاً لعمه إلى أن توفي العم في «ياطب» الواقعة في جبل شمر، بعد أن كان قد انضم على ما يبدو إلى حملة الغزو التي ترأسها «أبو طالب» كما أشرنا آنفاً.

قام «محسن» الرجل القوي في الأسرة باغتصاب الإمارة، وفي عام ١٦٠٦ أغار على نجد بقوة ترأسها هو شخصياً. وكانت قرية «القصب» في شعب العتك هدفه منذ ذلك الغزو، وتمكن من الاستيلاء عليها واقترف فيها العديد من الأعمال الوحشية.

في تلك الأثناء كان مناطق وسط الصحراء العربية لا تزال في حالة غليان يستقر بشكل مضطرب نوعاً ما ليأخذ شكل أنماط يمكن أن تستمر معهم حتى المرحلة الوهابية التي لا زال أمامها وقت طويل لتظهر على السطح.

قام الإخوة «من آل حنيحن» و «محمد» و «عبد الله» أبناء العاقر بطرد جماعة «العرينات» من قرية «سدير» في منطقة «البير»، وطوروا الحياة الزراعية هناك والتي في النهاية ورثها «حمد بن محمد» وبقيت سلالته تمتلك تلك المنطقة حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي عام ١٦٠٦ أسست أسرة «التميم» المستوطنات القروية بالقرب من «الحصون» القريبة من واحة جنوبية سدير وفي اتجاه مجرى الوادي مروراً بقلعة «القارة» المبنية على هضبة مرتفعة.

لم تحتل جماعة «الهزازنة» واحات «حريق ونعام» الواقعة في جنوب الخرج إلا في أواخر عام ١٦٣٠، وتوالى الملاك على قسم من واحات

الرياض المعروفة باسم «المقرن»، وذلك إثر مقتل كبار الشخصيات من أهم أسرة في تلك الجماعة وهم أبناء «مفرج بن ناصر». وكذلك إثر قيام أحد عناصر عشيرة «المديريس» باغتصاب زعامة تلك القبيلة واحتكاره المشيخة لنفسه.

مات في تلك الفترة الشريف «محسن» بعد الزيارة التي قام بها إلى الأحساء في عام ١٦٢٢، والتي سبق وأن أشرنا إليها وخلفه في الحكم ابن عمه «سعود بن إدريس» الذي سرعان ما أطيح به ليحل محله زيد ابن محسن وكان هذا الأخير قد تعرض لعاصفة سياسية حين أطاح به أيضا الشريف «نامي» في عام ١٦٣١. إلاأن زيداً وبعد فترة قصيرة استطاع أن يسترد الإمارة منه وأن يحتفظ بها إلى أن مات في عام ١٦٦٥.

أصبحت «نجد» الآن تستمتع بفترة راحة طويلة نسبياً بعيداً عن مطامع الأشراف، كما تحولت الاهتمامات في شؤونها لتتركز على نشاطات أمير «العيينة» «أحمد بن عبد الله بن معمر» الذي كان يسعى جاهداً من أجل التوسع. وفي عام ١٦٤٢ قام الأمير «أحمد بغزو منطقة «سدير» إلا أنه لم يحرز سوى انتصاراً طفيفا تجلى في الاستيلاء على قرية «أم حمار» في الطرف السفلي من واحدة «الحوطة». وبعد مضي أربع سنوات جلبت له السنون نهاية غير متوقعة... فداهمته المنية وهو في طريقه للحج في منطقة «المغاسل» المعروفة اليوم باسم «مركز السيل الكبير». في العام التالي (١٦٤٧) اغتيل ابنه كما اغتيل خلفه «ناصر» على أيدي ابن أخيه «دواس بن محمد» الذي اغتصب إمارة العيينة.

كانت تلك هي المرحلة التي حدد فيها الشريف «زيد بن محسن» نشاطاته

في الصحراء. قام الشريف «محمد الحريث» في عام ١٦٤٦ ونيابة عن الشريف «زيد» بزيارة «ثرمداء» وهناك ومن خلال لقاء تم بينه وبين أحد كبار المشايخ ويدعى الشيخ «محمد بن إسماعيل»، تمكن من طرد أي نوايا عدوانية كان من المحتمل أن يكنها في صدره. لكن في العالم التالي ترأس الشريف «زيد» بنفسه حملة غزو واسعة النطاق وتوجه بها إلى «نجد». وهناك كان عليه أن يقارع أولاً منطقة «روضة سدير» التي لقي زعيمها «محمد بن ماضي بن محمد بن ثاري»، كما اقترف المنتصرون هناك العديد من الأعمال الوحشية، وبعدها توجه «زيد» جنوباً باتجاه «بنبان» مموهاً بذلك تقدمه نحو الرياض. وفي طريق عودته إلى دياره عرج على «العيينة» وأجبرهم على أن يدفعوا مبالغ طائلة من المال، كما أخذ منهم عنوة حمولة (٣٠٠) جمل من القمح.

وفي هذه المرحلة كانت المصائب قد حلت على منطقة العيينة. فحدث بعد عام من هذا التاريخ وقبل مضي أقل من تسعة أشهر على حكم «دواس ابن محمد» للعيينة، أن أقدم «محمد بن حمد بن عبد الله» - وهو ابن عم «دواس» - على ذبح «دواس» نفسه واستولى على حكم المنطقة ونفى عنها «مهنا» أخو المذبوح «دواس»، وشمل ذلك النفي أيضاً عناصر أخرى من ذلك الفخذ من العائلة.

لم يكن مقدراً لمحمد أن يحكم طويلاً، إذ خلفه بعد وفاته في عام ١٦٦١ ابن عمه «عبد الله بن أحمد». تورط الحاكم الجديد في مشكلات مع أهل «البير» في «سدير» بسبب سرقته لجمالهم في إحدى الغزوات العادية، وفي محاولة منهم للأخذ بالثأر رتبوا كمائن لقوافل العيينة المحملة بالأقمشة

والبضائع الأخرى والقادمة من الشاطئ وانقضوا عليها وسلبوا حمولتها. وفي المقابل قاد «عبد الله بن أحمد» حملة تأديبية وسار إلى جانبه قاضي «العيينة» قاصداً تلقين أولئك القرويين درساً لن ينسوه، ولكن لحسن حظ هؤلاء القرويين حدث أن جماعة من قوات «عبد الله» المغيرة كانت تمكن وراء جدار استعداداً للانقضاض، إلا أن ذلك الجدار انهار عليهم ومُنُيُوا بخسائر جسيمة في الأرواح، الأمر الذي حول موضوع الغزو إلى موضوع مفاوضات لعب فيها القاضي دوراً بارزاً في التوصل إلى تسوية سليمة بين الأمير «عبد الله بن أحمد» والقرويين. . . يقال إن التسوية دارت حول موضوع إعادة القرويين لكافة البضائع والأملاك التي سرقوها.

الغريب في الأمر أنه تتوافر لدينا معلومات بسيطة جداً بخصوص التطورات التي حدثت في الدرعية خلال الفترة التي عقبت حملة الحج التي قام بها أمير الدرعية «ربيعة» في عام ١٦٣٠. وتتحدث المراجع التاريخية المتوفرة عن أحداث عام ١٦٥٤، فتشير تلك المراجع إلى أنه في تلك الفترة تورط ابن ربيعة الذي قام بالتواطؤ مع خلف ربيعة المدعو «وطبان» بقتل «مرخان بن مقرن» واغتصب إمارة «الغصيبة»(*). إن فترة هذه المرحلة قصيرة لكنها مهمة على الصعيد التاريخي، وعليه لعله يجاز لنا أن نعيد سير ترتيب الأحداث على الشكل التالي: من المحتمل أن يكون «وطبان» قد خلف والده في وقت ما وخلال فترة زمنية سبق أن أشرنا إليها، كما يمكن أن يكون قد واجه تحد من قبل ابن عمه «مرضان» الذي أطاح به في نهاية المطاف. . . ويقال إنه في عام ١٦٥٤ قام «وطبان» بقتل «مرخان» ليستعيد

(*) هجرة في إمارة تبوك بمنطقة ام لج.

مكانته كزعيم للدرعية.

وتقول بعض الروايات غير الموثقة أن «وطبان» فر من الدرعية خوفاً من الثأر للقتيل، وأن القاتل يقتل ولو بعد حين واستقر به المطاف في الزبير، ومع مرور الأيام أصبح حفيده «إبراهيم بن ثاقب» أميراً عليهم، في حين تمكن ابنه «محمد» الأكثر شهرة وحنكة سياسية أن يتبوأ مركزاً سياسياً لم يستسيغه الحاكم العثماني آنذاك. وفي عام ١٦٣٨ غرر به بأن يذهب إلى السرايا في البصرة وفعلاً ذهب هناك مع العديد من أقاربه وأتباعه وهناك لقي الجميع مصرعهم.

ومهما يكن الحال فإن لدينا أدلة تبرر افتراضنا بأن القتيل «مرخان بن مقرن» أو قاتله «وطبان» الذي استولى على الإمارة واختار بعد ذلك المنفى طوعاً، لم يكن ليخلفهما في إمارة الدرعية ابن مرخان بن وطبان، بل خلفهما «محمد بن مقرن» وهو أخو «مرخان» وهو بالتالي والد «سعود»، الذي يمكن أن يكون أول من تولى الحكم من سلالة عائلة آل سعود والتي تعود إلى سالف أجداد الملك الحالي للمملكة العربية السعودية.

وحوالي عام ١٦٥٤ وبالتحديد قبل ثلاثة قرون خلفه في رئاسة القبيلة «ناصر»، والمفترض أن يكون أكبر أبنائه وشقيقاً لسعود الذي أطلق عليه بالتأكيد في عام ١٦٧٣ اسم أمير الدرعية. وضمن سلسلة الحزائز والضغائن الدموية تم اغتيال «ناصر» وابن عمه «أحمد بن وطبان» على أيدي والد «أحمد بن وطبان» نفسه، ومن المحتمل أن يكون ذلك الاغتيال قد تم لمساعدة «أحمد بن مقرن»، وهناك ثمة سبب تدعو للاعتقاد بأن القاتل كان «فرحان بن وطبان» الذي كان على ما يبدو في تلك الفترة قد تمكن من اغتصاب كافة أملاك المنطقة، لكن سرعان ما قام أخوه «إبراهيم» باغتياله في عام ١٦٩٠.

وحكم إبراهيم بدلاً عن أخيه حتى عام ١٦٩٤ وفي ذلك العام قام شخص يدعى «يحيى بن سلمة» باغتياله، ولا يعرف الكثير عن أصل هذا الشخص سوى أنه ابن رئيس قبيلة «ضفير» المدعو «سلمة بن سويط».

في هذه المرحلة ازدادت قصة مشاهير وأمراء الدرعية المعقدة تعقيداً. . . وإن ما زاد في تعقيدها هو أن «محمد بن مقرن» الذي دام حكمه حتى عام ١٦٥٤ لم ينته أجله إلا في عام ١٦٩٤. وباستطاعتنا أن نفترض بأنه تنازل عن الحكم، أونفترض أنه أطيح به ليتولى أخوه «ناصر» السلطة في وقت ما قبل حلول عام ١٦٧٣.

وبعدها عاش على مدى السنين المتقلبة التي امتدت لفترة حياة بعيدة عن الزعامة. كما يمكن القول أنه عاش حاملا لقب أمير بصفة اسمية على مدى أربعين عاماً كان أفراد الأسرة خلالها يتبادولن الحروب بينهم. إن أقل ما يمكن أن يذكر هنا أن ابنه «سعود» كان قد بلغ من العمر ثلاثين ربيعاً، وأن أول ظهور له على ساحة الصحراء العربية كان في عام ١٦٨٥ عندما كان برفقة «عبد الله بن معمر» أشهر أمراء «العيينة» على رأس حملة لغزو قرية «حريملاء». هذا وشارك في معركة تعرف في سنين نجد التاريخية باسم «يوم الكمين الأول» والتي قتل فيها ثلاثين رجلاً من المدافعين، ولم يكن «سعود» في تلك الموقعة قد بلغ سن العشرين. . . ومنطقياً يمكن القول أنه كان قد ولد في عام ١٦٦٥ وهو العام الأول لكارثة القحط والمجاعة التي ألمت بالصحراء العربية.

ولنعد إلى الوراء من النقطة التي توصلنا إليها ولحوالي قرن من الزمن، لنجد أن الأتراك قد استكملوا احتلالهم لبغداد في بداية القرن السابع عشر، لكنهم وجدوا أنفسهم في عام ١٦٢٢ مضطرين لمواجهة تحدي شاه إيران

«عباس الأول» الذي توجه إلى بغداد على رأس جيش عرمرم. في تلك الفترة كان السلطان التركي غاضباً على «الباشا بكر» الذي كان يشغل منصب الحاكم التركي، وكان قوياً لدرجة أنه تحدى أوامر الصدر الأعظم الصادرة بإقصائه عن منصبه. وجد «أحمد حفيظ باشا» الذي كان الصدر الأعظم قد أرسله ليحل محل «الباشا بكر» إن من الحكمة أن ينسحب عن ساحة تلك المواجهة. على أي حال كان من السهل على «شاه عباس» أن يغرر ببكر ويحمله على فتح بوابات المدينة له، وعرض عليه أن يبقيه في منصبه تحت الحماية الفارسية. كان «بكر» أول ضحية لفسوق جند الشاه الذين كانوا ينهبون ويسلبون المدينة دون رحمة أو هوادة، وكانوا يقتلون كل سُني يقع في أيديهم وخاصة العلماء، وكانوا يدمرون المساجد ويحرقون المكتبات. وتم حسب الأمور المرعية تعيين حاكماً قاسياً على المدينة، وذهبت كافة جهود الأتراك الرامية إلى تدارك الأوضاع أدراج الرياح إلى أن تمكن السلطان «مراد» من إعادة الاستيلاء على بغداد في عام ١٦٣٨.

وكما أشرنا آنفاً كان - في تلك الفترة - قد مضى على احتلال الأتراك لمقاطعة الأحساء حوالي نصف قرن، وبعد حوالي ثلاثين عاماً - أي في عام ١٦٦٧ - أحكم العثمانيون طوق حكمهم على الصحراء العربية، وذلك باحتلالهم «للبصرة» جاء ذلك الاحتلال على أيدي «مصطفى باشا» ونيابة عن السلطان «محمد بن إبراهيم بن أحمد».

لكن الحجاز - وبالرغم من الوصاية الاسمية لخلافة السلطان على الأماكن المقدسة - لم تلفت الاهتمام العسكري ولا السياسي لحكومة القسطنطينية. كان الشريف «زيد بن محسن» قد مات في عام ١٦٦٥ بعد فترة حكم له دامت لمدة أربعين عاماً. تولى الخلافة على الإمارة من بعده ابنه

«سعد» بعد عراك مع الشريف «حمود بن عبد الله». والجدير بالذكر هنا أن «زيد» كان قد اختار «حمود» ودربه ليكون خلفاً له لكونه ابن عم والده ولكونه على ما يبدو رجل ذو مواهب وكفاءات، فلم يكتف «زيد» بأن زوجه ابنته بل عهد إليه أيضا بصلاحيات إدارية واسعة، الأمر الذي لم يترك أدنى شك في أذهان الناس بأن ثمة ترتيبات كانت تُعد ليسلم «حمود» دوراً رئيسياً في الوقت المناسب، لكن يبدو أن «حمود» كان ينقصه الطموح الشخصي وبعد أول صدام له مع «سعد» قبل «حمود» ادعاءات «سعد» برحابة صدر.

عهد في عام ١٦٦٩ إلى الشريف «حمود» قيادة حملة عسكرية وتوجه بها إلى نجد، وهناك تعامل بنزاهة مع مختلف القبائل بما فيها قبائل عنزة ومطير وبني حسين (أو بني حرب؟) وكذلك مع عشائر «هتيم» في منطقة «عوازم» وهي آخر منطقة كويتية. كان جل غايته أن يصل «الظفير» وهو من مناطق الحدود العراقية الكويتية وسبق له أن سرق من «بدو صمدة Samda» عدد كبير من الجمال النفيسة. و«بدو صمدة» هي فخذ مستقل عن جماعة «الظفير». التقت هذه الجماعات مع جيش «حمود» الذي انضم إليه فيما بعد «سلمة بن صويط» كبير مشايخ «الظفير». وعندما رفض المهاجمون إجراء ترتيبات تتعلق بعودة الأملاك والتعويضات وفق العادات البدوية، حرض سلامة حمود على الهجوم وأسر الأعداء؛ إلا أن «حمود» لم يذعن لرأيه مما جعل «سلمة» يستكن إلى قبيلته والحنق يوغل في سدره معداً العدة لشن معركة ضدهم.

إن تصرف «صمدة» المريب عرض «عدوان» وعناصر أخرى من قوات «حمود» لوطأة هجوم « الظفير»، وفي تلك المعركة قُتل أخو حمود واثنين

من أبناء أخيه. انتصر رجال القبائل في تلك المعركة لكن بعد مضي وقت قصير قام الشريف «غالب بن زامل» بهجوم مضاد وأنزل في صفوف رجال القبائل خسائر جسيمة. استمرت حالات العداء بين الطرفين إلى أن قام الشريف «أحمد بن زيد» بإعداد ترتيبات السلام والمصالحة.

وبعد بضع سنوات قام شريف آخر يُعرف باسم «بركات» بقيادة حملة عسكرية ضد قبيلة «حرب» التي كان يتزعمها «أحمد بن رحمة بن مضيان»، ودارت معركة قتل فيها «أحمد بن مضيان» وعدد آخر من كبار رجال القبيلة، ذلك بالرغم من خنادق الاستحكام التي حُفرت لعرقلة خيالة الشريف «بركات». ولم تصد عنهم الخنادق أي شيء بل على العكس كانت بمثابة قبور محفورة توارت فيها جثثهم، كما أن قوات «بركات» أعملت في أرضهم الخراب والدمار والسلب والنهب. ويذكر أنه بعد عام من تلك الواقعة (١٦٧٤) توفي الشريف المشهور «عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المحجوب»، وشهد ذلك العام أيضاً وفاة الشريف «حمود» بطل معركة «الظفير»، كما توفي في ذات العام الشريف «أحمد بن محمد بن الحارث»، وهو فيلسوف كان شرفاء عصره البارزين يستشيرونه في كافة الأمور والقضايا. ويذكر أن «حسن باشا» سبق أن عينه أميراً على «مكة» إبان المشكلات التي حدثت بين «سعد» و«حمود» حول وفاة «زيد». وتمكن المتنافسون من تصفية خلافاتهم وتنازلوا عن مواقفهم لصالح «سعد» وذلك ليتخلصوا من شخصية كانوا يعتقدون أنها ستكون مرشحة من قبل الأتراك لحكم الحجاز، والواضح أن هذه هي أول إشارة نشير فيها إلى إقدامهم على منطقة الحجاز.

من الممكن أن يكون «حسن باشا» آنذاك والياً على« ذلك الإقليم، إلا أنه على الأرجح لم يكن أكثر من قائد للحملة العسكرية التركية. ومما يزيد من تعقيد الوضع بين أشراف الحجاز هو أنه في مذكرة فيها إشارة لعام ١٦٦٧ هناك إشارة إلى أن ولاية مكة كانت في ذلك الحين في أيدي أسرة «آل يزيد» وهي أسرة موالية لسلالة «أبو نمي» الحاكمة، كما أن «سعد» في تلك الفترة كان الشريف المتولي للحكم بينما كان «أحمد الحراث» في خدمته شاغلاً منصب «شريف نجد».

هذه أول إشارة محددة لادعاء أشراف مكة في ممارسة حكمهم على المناطق الصحراوية البعيدة عن السواحل والنائية عن المدن، علماً بأن الحالات العديدة والمؤرخة بخصوص تدخلاتهم في منطقة نجد لدليل كاف على وجهات نظرهم بهذا الخصوص.

ففي عام ١٦٧٦ قام الشريف «محمد الحراث» بغزو نجد وبمهاجمة قبيلة «فضل» وقتل زعيمها، وفي العام نفسه خاض شريف يقال له «الحارث» معركة كبيرة ضد «الظفير» في «الضلفعة» بالقرب من «البكيرية» الواقعة في منطقة القصيم، وكانت تلك المنطقة مسرح أحداث معركة مشهورة بين العرب والأتراك في عام ١٩٠٤.

وافقت «الظفير» التي هزمت في تلك المعركة على أن تدفع لمكة جزية سنوية كثمن للسلام، غير أنه من غير المحتمل أن يكون «أحمد الحراث» المشار إليه آنفاً شبيهاً لـ «أحمد بن محمد بن الحارث»، وأن «محمد الحراث» كان والده. والمعروف بالتحديد أن الوثائق التاريخية أشارت إلى «أحمد الحارث» على أنه كان شريفاً على مكة في عام ١٦٨٠ وكان وجهاء نجد

يقدمون لزيارته في مواسم الحج أو في نهاية شهر كانون الثاني: ومن بين هؤلاء الوجهاء كان «محمد بن ربيعة بن وطبان» وهو من منطقة الدرعية.

حدث صدفة في العام نفسه (ولا يعرف بالتحديد في أي شهر) أن مكة شهدت مرة ثانية فيضانات جارفة وصلت بسببها مياه الفيضانات إلى ارتفاع قفل باب الكعبة (أي على الأقل عشرة أقدام فوق سطح الأرض). هذا ودمرت الفيضانات عدة منازل وقضت على العديد من الممتلكات في المدينة ناهيك عن غرق حوالي مائة شخص. وفي الواقع شهد المؤرخ «آل أسامة» حادثة الفيضانات تلك بأم عينه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اسمه الكامل هو «عبد المالك بن حسين المكي الشافعي آل أسامة» مات في شهر كانون أول من عام ١٦٩٦.

عند هذا القدر من السرد يتوجب علينا أن لا نغفل حدث آخر يتعلق بالمشكلات المتعاقبة لأشراف مكة، فلدينا سجل أحداث تاريخية يتناول عام ١٦٩١ وبالتحديد فترة الولاية الثانية للشريف «سعد» وهو ابن «سعد بن زيد». تصادفت فترة ولايته في أثناء حياة والده «سعد»، لكن والده أقاله عن منصبه بعد فترة حكم له دامت لأقل من ستة أشهر، واستأنف شؤون إدارة الإمارة بنفسه حتى عام ١٧٠٣ وفي ذلك العام تنازل عنها طوعاً. ويبدو أن أول مجيء لـ «سعد» إلى السلطة اشتمل على توقف قصير في فترة ولاية الشريف «محسن بن حسين» الذي – كما أشرنا سابقاً – داهمته المنية في عام ١٦٨٨.

من الواضح أن منطقة مكة على مدى ربع قرن شهدت الكثير من

الاضطرابات السياسية إثر وفاة الشريف «زيد» الذي عاش ابنه «سعد» من بعده لمدة أربعين عاماً رافقتها عشرات السنوات كان الحكم خلالها خالياً من أي حاكم . . . فصلت تلك المرحلة أول فترة حكمه عن ثاني فترة له في الحكم. لكن وإن كان «سعد» طاعن في السن خلال فترة حكمه الثانية لإمارة مكة، لكنه كان سليم الجسم موقور الصحة على نحو مكنه من قيادة حملة خلال الأشهر الأولى من عام ١٦٩٤ جاءت عاقبة لغزو نجد، علماً بأنه لم يتمكن من إنجاز الكثير من التقدم بعد منطقة «الحمادة» الواقعة في الطرف الغربي من «طويق». وخلال موسم حج هذا العام نفسه وبالتحديد في شهر تموز حدث اصطدام بينه وبين الحجاج ووقعت مجابهة عنيفة دارت في شوارع مكة، حتى في الحرم نفسه. وبلغت الفوضى ذروتها لدرجة أن الشريف «عبد الله بن هاشم» وهو ينتمي إلى فخذ آخر من فخوذ هذه السلالة، أقدم على إجراء جذري إذ خلع «سعد» من منصبه وتولى حكم المدينة بشكل مؤقت بمساعدة الشريف «أحمد بن غالب» الذي كان قد رجع من منفاه في اليمن ليعيش حياة هادئة وسط أملاكه بمنطقة «ركاني» الواقعة في وادي فاطمة. لكن مع نهاية العام كان «سعد» قد نجح في العودة إلى مكة وبدأ عهد حكمه لها بعد أن نفى «عبد الله بن هاشم» ومواليه وأعوانه.

وفي العام التالي كان على رأس حملة عسكرية توجه بها إلى نجد هناك حاصر قرية «أشيقر» وأذاق أهلها من الضيق والعسر والشدة ما حدا بالقاضي الشيخ «أحمد بن محمد بن القصير» أن يصدر فتوى أجاز فيها الفطر طيلة شهر رمضان الذي تصادف مع شهر نيسان من ذلك العام، وذلك ليتمكن

الفلاحون من جني محاصيلهم ووضعها في صوامع أو مخازن الحبوب.

اقترح «سعد» الذي عجز عن إرهاب رجال الوشم العنيدين أن تدار مفاوضات فيما بينهم، كما أصر أن يقوم الشيخ «أحمد» المشار إليه سابقاً وكذلك صديقه الشيخ «حسن بن عبد الله أبو حسين» بدور المفاوضين في القرية، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح إلا أنه تم اعتقال الشيخين لدى وصولهما إلى خميته وأودعا السجن.

حدث في الدرعية وفي ذلك الوقت من السنة أن قام سلطان بن حمد القيسي (وهو من منطقة غير معروفة) باغتيال «إدريس بن وطبان» الذي على ما يبدو كان قد نجح في الدخول إلى حيز وجهاء الدرعية بعد مقتل أخيه «إبراهيم» في عام ١٦٩٤. وتفترض بعض المصادر التاريخية أن سلطان بن حمد القيسي من قبيلة «بني خالد» من منطقة الأحساء، وكان قد اغتصب الإمارة واحتفظ بها حتى عام ١٧٠٨ حيث استهدفته سكين أحد القتلة المأجورين، وخلف في الإمارة أخوه «عبد الله» الذي انتهت بمقتله في شهر آذار من عام ١٧٠٩ فترة الخمسة عشر عاما من السيطرة الخارجية على منطقة الدرعية. عادت الدرعية الآن إلى حظيرة السلالة الشرعية المتجسدة في شخص «موسى بن ربيعة بن وطبان». وفي هذا السياق تنقصنا معلومات عن الأحداث التي تعاقبت على هذه الأسرة على مدى العقد التالي. وكل ما هو معروف لدينا أنه في وقت ما قبل عام ١٧٢٠ تم إقالة «موسى» من منصبه ونفيه خارج الدرعية، وعليه تحولت ملكية الدرعية إلى سلالة «آل سعود» على أيدي «سعود بن محمد بن مقرن» المؤسس للسلالة الحاكمة بـ (آل سعود) التي تُعرف باسمه واستطاع بالرغم من عدة محن أن يحافظ على

سطوة عائلته الحاكمة وقيادتها للصحراء العربية، والتي استطاعت أن تبلغ ذروة مجدها في عصرنا هذا وعلى مدى عهد حكم طويل مجيد من قيادة الملك «عبد العزيز بن سعود».

حدث في عام ١٧٢١ وخلال فترة «سعود» للدرعية أن رُزق «محمد بن سعود» ولدا حمل اسم «عبد العزيز» ليكون اسمه شبيهاً لعبد العزيز الذائع الصيت. لم يكن مقدراً لسعود أن يرى تبرعم وتفتح زهور ذريته ولم يكن ليعلم أيضاً أن في العيينة، القرية المجاورة، يوجد طالب علم متحمس بلغ من العمر عشرين ربيعاً، وكان مقدراً له أن يلعب دور القائد المفكر والصديق لابنه ولحفيده اللذان تمكنا في يوم من الأيام أن يصعدا إلى أوج الشهرة والمجد، مستعينان بساعديه القويتين.

وُلد محمد بن عبد الوهاب في العيينة عام ١٧٠٣ ليدرك عندما حان الوقت أن لا كرامة لرسول في موطنه.

اجتمع «سعود» في يوم الحادي والعشرين من شهر حزيران من عام ١٧٢٥ في ليلة عيد الفطر مع والده وأعمامه وأجداده، وتقرر آنذاك أن يخلفه في حكم الدرعية «زيد بن مرخان بن وطبان» بصفته أكبر ممثلي فخذ تلك الأسرة وليس ابنه «محمد». وكان ذلك إجراء عادي يقتضيه نظام حق البكر في ولاية العهد وهو نظام متبع في الصحراء العربية... وبدا ظاهرياً أن أحداً لم يستاء أو يعترض على تلك الخلافة، لكن في حقيقة الأمر كان أخو سعود والمدعو «مقرن» يعتقدا بأنه كان أحق بتلك الخلافة واشتهى ذلك الشيء لنفسه، علماً بأنه أبدى اعترافاً على الصعيد الرسمي بولائه لتلك الخلافة. وفي أحد الفرص قام مقرن بدعوة «زيد» لزيارته ليؤكد على

تفهمهما للوضع، إلا أن «زيد» الذي شم رائحة الغدر رفض الدعوة وطلب أن يضمن «محمد بن سعود» و«مقرن بن عبد الله بن مقرن» (وهو ابن أخو محمد بن سعود وابن العم اللزم لمقرن بن مقرن) أمنه وسلامته. . . وكان ذلك الطلب بمثابة إقرار صارخ لسمعتهما ونزاهتهما. وأعطى كلاً منهما كلمة العهد بالوفاء وتم اللقاء بين «زيد» و«مقرن» في مجلس «مقرن»، لكن سرعان ما اتضح أن «مقرن» كان ينوي الغدر بضيفه ودون أية ضجة أو لغط انتفض الكفيلان الضامنان وأبديا انزعاجهما لعدم نزاهة مضيفهما، وهنا هرب «مقرن» من خلال أحد النوافذ واختبأ في الخزانة، وفيما بعد ألقي القبض عليه ونفذ فيه حكم الإعدام. وبقي «زيد» سيدا لموقف خيمت عليه أحداث مأساوية ترافقت مع آلام جسام لسلالة حاكمة مقدر لها أن تكون سلالة عظيمة.

لم يعش «زيد» في تلك الفترة طويلاً، إذ تعرضت مدينة العيينة خلال العام المنصرم لوباء الكوليرا القاتل الذي فتك بها وأودى بحياة القسم الأكبر من سكانها. وكان أمير البلاد الضحية الرئيسية لهذا الوباء، فقد خلفه بعد وفاته حفيده «محمد بن حمد» الملقب بـ «خرفاش» (المفأفأ أو المتأتأ). جاء عزل مدينة العيينة بسبب الوباء (التي لازالت إلى يومنا هذا من أعظم المدن ازدهاراً في قلب الصحراء)، ليثير طمع «زيد» الذي زحف إليها بعدد كبير من أهالي «كثير» ومعه عدد من قطاع الطرق. وعند وصوله إلى «عقربا» القريبة من «الجبيلة» تلقى من «خرفاش» رسالة استنكار لكن بأسلوب مؤدب، وعرض «خرفاش» على «زيد» في تلك الرسالة أن يعطيه كل ما يشاء دون أن يضعه أمام مشكلة سلب القرويين والبدو المعوزين. واقترح

عليه أن يجتمعا لمناقشة تلك المسألة. سار «زيد» إلى هناك وبرفقته أربعون رجلاً بما فيهم الأمين «محمد بن سعود». وهناك قام خدم «خرفاش» الذين كانوا قد انتشروا واختبأوا في أماكن معينة، بإطلاق النار على «زيد» لحظة جلوسه على كرسيه في غرفة الاستقبال وأردوه قتيلاً. على الفور لاذ «محمد» وجماعته في غرفة مجاورة وكانوا مستعدين للقتال حتى النهاية إذا اقتضت الضرورة. رفض «محمد» طلب «خرفاش» بالخروج من الغرفة وقال بأنهم لن يخرجوا ما لم تضمن السيدة «جوهرة» سلامتهم وعدم تحرش «خرفاش» وجماعته بهم. والجدير بالذكر أن السيدة «جوهرة» المشهورة هي ابنة الأمير الراحل «عبد الله بن معمر» المشهور وعليه فهي تكون عمة «خرفاش» وتمت الأمور على ذلك النحو وعاد «محمد بن سعود» ورجاله إلى الدرعية واستمر في حكمه لإمارة الدرعية حتى نهاية عام ١٧٢٦ أو كما يقال لبداية عام ١٧٢٧، واستمرت إمارته للدرعية دون أي تحدٍ حتى وافته المنية في عام ١٧٦٥.

في أعقاب بداية حكم متقلبة ومليئة بالأحداث، تمكنت سلالة آل سعود أخيراً من إرساء قواعد حكم ثابت: ولم يعد مكان لأعمال الثأر التي أودت بحياة العديد من الأجيال السابقة. وهنا يمكن القول أنه في هذه الفترة تم التخلص من آخر شخص كان يدعى أن له الحق في الاستيلاء على الحكم، وذلك الشخص هو «موسى بن ربيعة» الذي كان «سعود» قد نفاه ليعيش في مرابع «ابن معمر»، وجاءت وفاته إثر إصابته بعيار ناري من بندقية قديمة لفظ على إثرها آخر أنفاسه.

كوننا وصلنا إلى النقطة التي تبدأ معها قصة المملكة العربية السعودية،

يتوجب علينا أن نعود بخطانا لنراجع سجل منافسي آل سعود من أجل السيطرة على هذه المنطقة منذ القدم حتى وقتنا الحالي. ولعله من الملائم أن نبدأ من منطقة الحجاز حيث كان الشريف «سعد بن زيد» في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر أميراً على إمارة مكة. ونيابة عن «سعد» وفي عام ١٦٩٧ قام الشريف «سرور بن زيد» (الذي يقال بأنه كان أخ لزيد أو ابن أخيه) بشن غارة شاملة على مناطق نجد. وكان هدفه بالدرجة الأولى النيل من منطقة «سدير» التي كانت تتمتع باستقلال ثابت تشوبه أعمال شغب متكررة.

ارتكبت قوات «سرور» الفظائع في قرية وواحة «الروضة» وانطلقت منها إلى منطقة «جلاجل»، وهناك تمكن «سرور» من إلقاء القبض على أمير الروضية الهارب «ماضي بن جاسر». وعلى إثر تلك الأحداث تم إقصاء ثلاث عشائر من العشائر الأربع المؤسسة لإمارة «الروضة» ونفيهم إلى منطقة «أشيقر». إلا أن عشيرتين منهم عادتا بعد عامين بكامل قوتهما: كانت إحداهما عشيرة «آل أبو راجح» التي كان «ماضي بن جاسر» من أبرز رجالها. لم تتمكن هذه العشيرة من استعادة ممتلكاتها من الواحة فحسب، بل طردت أيضا عشيرة «آل أبو هلال» من هناك إثر معركة دارت في منطقة الداخلة التابعة لـ «فوزان بن زامل» زعيم «التميم» والذي ساند في تلك الموقعة «ماضي بن جاسر» وفي الفترة نفسها تقريباً قررت مجموعة من الأسر في «حوطة سدير» أن الظروف في موطنهم كانت مواتية وتسمح بعودتهم إلى مناطقهم بعد أن كانوا قد أبعدوا عنها وارتحلوا للعيش في «العيينة». لكن عند وصول هذه الأسر إلى منطقة «العودة» استغل السكان هناك بساطتهم وانقضوا عليهم وذبحوا العديد منهم يزخر تاريخ منطقة «سدير»

بمثل هذه الأحداث، وإن لدينا من المعلومات التي تتعلق بالتفاصيل الدقيقة عن هذه الأحداث مما يفوق كل ما يتوفر من معلومات عن أية منطقة أخرى. ومرد ذلك هو أن معظم المؤرخين والأدباء عن تلك الحقبة السعودية كانوا أصلاً من منطقة «سدير» نفسها أو من المناطق المجاورة والقريبة منها.

وبالعودة إلى نشاطات الشريف «سعد» الذي كا على ما يبدو حريصا على إبقاء سيطرته على المناطق الداخلية، نجد أنه في عام ١٦٩٩ وبالتحديد في مكة قام «سعد» باعتقال المئات من كبار شخصيات ورجال قبيلة «عنزة» وأردعهم السجن وشهدت السنتان المتتاليتان عقب هذه الحادثة عدة حملات تأديبية موجهة بالدرجة الأولى ضد «الظفير»، والمتميز فيها أنها شملت فئات أخرى من قبيلة بني حسين» (من حرب؟).

منيت «الظفير» في عام ١٧٠١ بخسارة جسيمة تجلت في موت زعيمها المشهور «سلمة بن مرشد بن صويط» الذي برز في أكثر من مناسبة عبر أحداث هذه القصة كعدو لأشراف مكة بكل ما في الكلمة من معنى. وفي عام ١٧٠٢ أصيبت مناطق الحجاز بمجاعة شديدة، لكن في بداية عام ١٧٠٣ تنازل الشريف «سعد بن زيد» بمحض إرادته عن الإمارة لابنه «سعد» الذي وجد نفسه وجهاً لوجه مع مزيد من المتاعب. زادت ظروف المجاعة وغلاء الأسعار من حدة الاضطرابات وانعدام الأمن، وأصبحت الأمور خطيرة لدرجة أن «سليمان باشا» المعروف باسم «باشا جدة» والممثل المباشرة للصدر الأعظم في مناطق الحرمين الشريفين، بدأ يدرس إقالة «سعد» وتعيين الشريف «عبد الكريم بن محمد بن يعلا» في مكانه. والجدير بالذكر أن «عبدالكريم» هو من أنسباء عائلة «سعد». على أي حال شعر «سعد»

بالأخطار المدبرة ضده فتصدى لها بأن رشح ابن أخيه «عبد المحسن بن أحمد بن زيد» ليتولى الإمارة من بعده، إلا أن «سليمان باشا» استمر على موقفه. وبعد مضي تسعة أيام فقط على وجود «عبد المحسن» في الإمارة قام «سليمان باشا» بإقالته وتعيين «عبد الكريم» الذي كان الأتراك قد رشحوه لذلك المنصب. حدث ذلك في الجزء الأخير من عام ١٧٠٤ ومباشرة بعد التغيير الذي طرأ على السلطة العثمانية، إذ أطيح بالسلطان «مصطفى بن إبراهيم» وعُيّن مكانه أخوه «أحمد».

تزامن تسلم الشريف «عبد الكريم» لإمارة مكة مع نفي الشريف «سعد» ووالده «سعد بن زيد» عنها. استمرت ظروف المجاعة آنذاك ولكن بمستوى أقل حدة من المستوى الذي كانت عليه سابقا. لم يبد النظام الجديد اهتمام كاف بشؤون ومصالح مناطق نجد، ويبدو أن «عبد الكريم» كان يواجه العديد من المشكلات المحلية التي استحوذت على تفكيره. إن حقيقة كونه مرشحاً من الجانب التركي نادراً ما خدمته أو عملت لصالحه. ففي عام ١٧١١ عاد الشريف سعد من منفاه متمتعاً بدعم قوي يمكنه من الإطاحة بـ «عبد الكريم» وإقصائه عن البلاد. وعلى ما يبدو جاءت تلك الرغبة مباركة ضمنياً من قبل الجانب التركي بدليل أن السلطان أصدر في الوقت المناسب فرماناً عيّن بمقتضاه «سعد» والياً على إمارة مكة. وهكذا استلم «سعد» الإمارة هناك للمرة الرابعة وبقي في حكمها دون أي إزعاجات حتى توفي في عام ١٧١٧، وخلفه من بعده الشريف «محسن بن عبد الله» الذي غزا نجد وهاجم عشائر «بني حسين» بالقرب من «المجمعة» في شتاء عام ١٧٢٦/ ١٧٢٧.

ظل وسط الصحراء العربية حتى هذه المرحلة بعيداً عن تفكير واهتمامات

الأشراف لمدة تزيد على ربع قرن، ويمكن أن يعزى ذلك ولو بشكل جزئي إلى تعاظم سيطرة وقبضة الأتراك على مناطق الحجاز. وكان الأشراف ودون شك منشغلين في حفظ النظام بشكل عام وفي التأكيد على سلامة طرق الحجاج من الاعتداءات التي كانت القبائل البدوية تقوم بها.

توالت الكثير من الأحداث على منطقة الحجاز أثناء البزوغ الحقيقي لفجر عصر آل سعود. ولو نجح الأتراك في فرض نفسهم على الأماكن الإسلامية المقدسة وفقاً لالتزامات «الخليفة السلطاني» الروحية والمعنوية، لكان الوضع في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية مختلفاً تماماً لم يحظ ذلك الجزء من شبه الجزيرة سوى باهتمامات إمبريالية ودنيوية مادية. علينا أن نعود أدراجنا إلى الوراء وبالتحديد إلى النقطة التي كان فيها «علي باشا» مسؤولاً عن إقليم «الأحساء» والذي كان الأتراك قد استولوا عليه بشكل جزئي. والهدف من تلك العودة هو تعقب مجريات الأحداث التي لم يُلاحظ فيها أي أثر لسيطرة الأتراك في الجزء الشرقي من الصحراء العربية، حيث أوجدوا محمية قوية من أبناء تلك المنطقة لتنافس «العيينة والدرعية» في السيطرة على أرجاء الصحراء العربية. أثبتت الدرعية نفسها على أنه الحصان الأقوى بين الأحصنة المتنافسة في سباق شاق وطويل.

بعد أن قام «بكر باشا» وهو ابن «علي باشا» عام ١٦٣٤ بالحج إلى مكة خمدت حدة الأحداث في الأحساء. كما أنه لم يكن هناك أية مؤثرات تدل على أن الاحتلال التركي للأحساء لا يمكن أن يكون إلا احتلالاً دائماً. فيما يخص شرقي الصحراء العربية قوى موقف الأتراك بشكل ملحوظ إثر

استردادهم لبغداد من براثن الحكم النازي بقيادة السلطان «مراد» في عام ١٦٣٨ . تحسن الوضع بشكل ملحوظ خلال عهد حكم السلطان «محمد بن إبراهيم بن أحمد» إذ تمكن الأتراك من احتلال «البصرة» بقيادة «مصطفى باشا» عام ١٦٦٧ .

وبالرغم من تلك الانتصارات وصل الحكم العثماني في الأحساء بعد مضي عامين إلى نهاية عنيفة سارعت في إحداثها العشائر المحلية . دام الحكم العثماني هناك لأقل من ثمانية أعوام بقليل ، ولم يتجدد حكم الأتراك لتلك المنطقة إلا بعد مضي ما يزيد عن قرن ونصف . والمعلوم أنه أثناء تلك الفترة تم تعيين «محمد باشا» في منصب والي الأحساء بدلاً من «علي باشا» وخلف «محمد باشا» في منصبه «عمر باشا» الذي كان آخر أربعة حكام تعاقبوا على فترة حكم الأتراك استمرت على مدى ثمانية وسبعون عاماً بمعدل فترة حكم لكل واحد منهم بلغت اثني عشر عاماً .

حدث خلال فترة حكم «عمر باشا» وبدعم من «مهنا الجبري» سليل أسرة «أجود بن زامل» التي كان الأتراك قد شردوها عام ١٥٩١ أن ثار «براك بن غرير» زعيم عشيرة بني خالد ضد «راشد بن مغيمس آل شبيب» أمير المنتفق وقتله . جاءت ثورته تلك بدعم من قبل ابن عمه «محمد بن حسين بن عثمان» ، وكان «رشيد» على ما يبدو مجرد دمية تحكم ذلك الإقليم يحركها الحكام الأتراك كما يريدون . وبعد أن أشبع قوات رشيد المسلحة قتلاً وتنكلاً التفت «براك» إلى حامية تركية متمركزة في قلعة «الكوت» في الهفوف . . . وشن عليها هجوماً صاعقاً وقتل من قتل من الأتراك المدافعين عنها وهرب الناجون منهم خارج البلاد . وبعد مضي حوالي قرنين ونصف (كان في

وقتها الملك الراحل يشغل منصب حاكم نجد) حدثت دراما مشابهة للهجوم أعلاه ونتائج مشابهة له أيضاً : إذ قام حاكم نجد بوضع نهاية لآخر احتلال تركي في الأحساء، دام الاحتلال لفترة تزيد عن أربعين عاماً. وفي كلا الحدثين الدراميين كانت خطتا الهجومين جريئتين وقام بتنفيذهما رجال شجعان بقيادة ماهرة ضد عدو أعياه البعد الطويل عن بلده، كما أرهقه وجوده في مجاهل الصحراء، وأصبح منهكاً وغير قادر على إبداء أية مقاومة فعالة.

ولإعطاء تلك الشخصية حقها يمكن القول إن ذلك الشخص كان «براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة» من آل حميد زعيم «بني خالد» الذي كان في تلك الفترة أميراً على الأحساء. لم يكن «براك» ليقنع بأكاليل النصر، ففي العام الذي تلى انتصاراته وضع نفسه مجدداً في طريق الحرب. . . وجه هذه المرة ضربته ضد «الضفير» وبالتحديد ضد مناطق جنوب غرب «القصيم»، ومن المحتمل أن تكون منطقة «كيشان» هي التي شهدت الموقعة التي دارت بين «الضفير» و«الفصول». وفي طريق العودة مرّ «براك» بواحة «سدوس» ونهب رجال عشيرة «كثير».

فمن المشوق هنا أن نشير إلى أن أراضي «الضفير» تمتد غرباً لتصل إلى ما وراء حدودها الحالية المتصلة بشكل مباشر مع حدود العراق. هذا، وعلينا أيضاً أن نذكر أن قبيلة «الفضول» لم تعد موجودة في المنطقة الوسطى من الصحراء العربية كقبيلة منظمة، ومن المرجح أن تكون هجرتهم باتجاه الشرق قد بدأت في عام ١٦٧٤ عندما كان «نجد» تعاني من مجاعة وقحط شديدين. . . يشير البدو في حكاياتهم إلى تلك المجاعة باسم «الجرمان».

لكن شتاء عام ١٦٧٥, ١٦٧٦ أحدث بعض التوازن حيث هطلت أمطار غزيرة وافرة، لكن ما قلب ميزان التعادل هو غزو الجراد بهذه المناطق والذي حدث في العام الذي تلى سنوات المطر. عُرف ذلك العام باسم «عام الجراد». حيث مات العديد من الناس بسبب التخمة من أكل الجراد. هاجم «براك» في هذه الفترة «الضفير» للمرة الثانية وأسر زعيمهم الشيخ «سلمة بن مرشد بن سويط». وفي العام التالي شن «براك» غارة ناجحة على بعض مناطق أهالي الدرعية، لكن يبدو أن هذه الهجمات كانت آخر مآثره.

توفي «براك» عام ١٦٨٢ وخلفه من بعده أخوه «محمد» الذي توج توليه الإمارة بغارة شنها على منطقة «اليمامة» في الخرج. وبعد أربع سنوات عاود الكرة وهاجم مناطق مجاورة لليمامة وبالتحديد أجزاء من «صبيح» في «الحائر» الواقعة في وادي «حنيفة»، واستهدفت غارته الثانية التي شنها في صيف عام ١٦٨٧ مواقع في منطقة «الحائر» و «المجمعة» بإقليم «سدير». هذا، وتورط في العام التالي بحرب مع «آل عثمان» زعماء منطقة الخرج، لكن لا يتوفر لدينا سجلات تاريخية تتحدث عن سير أحداث تلك المعارك.

لكن يقال إن ذلك العام كان عام خيرات كثرت فيه المراعي الخصبة وكثر الكمأ وظهرت موجات عديدة من الجراد مجدداً. ويقول البدو «إن الجراد يأكلنا ونحن نأكله». بيع صاع القمح في «سدير» بمحمدية أي ما يعادل مجيدية في آخر أوقات حكم الأتراك، في حين بيعت وزنة التمر في الدرعية بمائة أحمر (أي ليرة ذهبية تركية). وبالمناسبة نشير إلى أن السجلات التاريخية تذكر أنه في العام التالي أقام ثلاث قوافل متجهة إلى الحج مخيماتهم في منطقة «عنيزة»، الأمر الذي أسفر عن ارتقاء أسعار المواد

الغذائية بشكل جنوني. وكان هؤلاء الحجاج من العراق وبلاد فارس والأحساء. وقد تعرضت قوافل الحجاج العراقيين في طريق العودة إلى غزو شنته جماعات من «الضفير» و«الفضول» قرب تنومة وسلبت كل أموال الحجاج وممتلكاتهم.

اجتاح الطاعون في عام ١٦٦٠ الأجزاء الجنوبية من العراق وفتك بأهلها، ووصف ذلك الطاعون بأنه لا مثيل له على الإطلاق، إذ أودى هذا الوباء بحياة عُشْر سكان البصرة التي هجرها أهلها إثر ذلك الوباء لعدة سنوات. وصل ذلك الوباء إلى بغداد واقتلع نسبة كبيرة من سكانها من جذورهم.

مات «محمد بن غدير» عام ١٦٩١ كما قتل ابن أخيه «ثنيان بن براك» في العام نفسه، كما قُتل، من جراء غارة أخرى تعرض لها، مرشحان آخران كان متوقع لهما أن يفوزا بزعامة القبيلة. وعليه آلت أمور المشيخة إلى «سعود بن محمد بن حسين بن عثمان» الذي سبق أن تعاون مع «براك» في طرد الأتراك.

في هذه المرحلة بدأت الحكومة العثمانية بمواجهة مشكلات مع قبيلة «المنتفق» في العراق، وفي عام ١٦٩٤ عيّن «مانع بن شبيب» نفسه سيداً على البصرة وعلى كافة النواحي المجاورة لها. كان «مانع» زعيم حركة تآلف القبائل ويفترض أنه جاء خلفاً لـ «راشد بن مغيمس آل شبيب» الذي فشل في إدارة الأحساء نيابة عن الأتراك. ومما لا شك فيه أن الأتراك آنذاك لم يضعوا تلك المنطقة تحت سيطرتهم المباشرة بسبب الدمار الذي لحق بها وبسبب الأوضاع الغير صحية السائدة فيها التي نجمت عن الطاعون. وعلى أي حال فإن خسارة الأتراك لمثل ذلك الحصن أو المتراس في شرقي البلاد لم ترق

لهم، ولهـذا لم يدم حكم زعـيم «المنتـفق» على تلك المنطقـة طويلاً، إذ تعـرضت البصـرة في عـام ١٧٩٦ لهـجـوم شنه «فـرج الله بن مطلب» زعـيم عرب الأهواز في الحويزة. تمكن فرج من احتلال البصرة بدعم على ما يبدو من بلاد فـارس التي قدمت لـه العـون لتـأمين مـصـالحـهـا. وفي عـام ١٦٩٩ استطاع الأتراك الفرس أن يستـردوا وأن يبعـدوا من تلك المقاطعـة وبذلك تمكنوا من السيطرة على منطقة استراتيجية هامة.

شهد العام الأول من القرن الجديد تحركات قام بها «سعدون» بدعم من جماعات «الفضول» وعناصر من الحجاز: إذ خاض معركة ضد «الظفير» في منطقة «البتراء» وسط رمال «نفود السر».

في عـام ١٦٩٦ قام «سلمـة بن صويط» بغزو مناطق الفـضول ثـم مناطق «سدير»؛ ولذلك فقد عانى سجناً وحصاراً فرضهما عليه للمرة الثانية شريف «نجد» لقيامه باعتداء على «الفضول». ولم يتركه «سعدون» ينعم بالسلام لفترة طويلة. وفي مجمل الأمر تكبد «سلمة» أشنع الخسائر في مواجهتين: كانت الأولى مع «سعدون» وحلفائه من زعماء القبائل في موقعه «الصالي»، وكانت الثانية في منطقة «البتراء». ويقال إن «سلمة» أصيب بجروح في تلك الاشتباكات وتوفي متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى ديرته وتم دفنه في «الجبيلة».

تعرضت كافة المناطق على مدى السنتين أو الثلاث سنوات اللاحقة لقحط وشظف عيش رافقها خمود في نشاطات بني خالد. لكن في عام ١٧١٦ قضى «نجم بن عبيد الله» وهو حفيد «غرير» أشهر الصيف في «ثادق»، وفي

العام نفسه شن «دجين بن سعدون» غارة على «آل زارع» وسلب ممتلكاتهم. وفي العام نفسه أيضا قام «الظفير» بطرد «عنز» من مضاربهم الصيفية في منطقة «سدير» وطاردوهم واشتبكوا معهم في معركة «الخضار» الواقعة ضمن الحزام الرملي لـ «الدهناء».

سقطت خيام الشريف «عبد العزيز» شريف نجد في أيدي الأعداء، أثناء معركة كان يحارب فيها إلى جانب «عنزة» المدحورين. وفي الأشهر الأولى من عام ١٧٠٨ قام «سعدون» بنفسه بمرافقة قوافل الحجيج من الأحساء مروراً بأراضيه، وخيم معهم في منطقة «ثادق» أثناء مرورهم بمنطقة طويق بمحاذات شعيب «العتك» الذي يفصل «سدير» عن «العارض». ساءت سمعة حفيد آخر من أحفاد «غرير» ويدعى «عبد العزيز بن هزاع» إذ أقدم في ذلك الوقت على قتل «عبد الله بن عبد الرحمن بن إسماعين» ابن عم الشيخ «محمد بن عبد الله بن إسماعيل»، وهو قاض سابق في «أشيقر»، ولم يعرف سبب تلك الجريمة كما لم يُعرف ما ترتب عليها من أمور والجدير بالذكر أن هذا الحفيد توفي في عام ١٦٩٧.

وفي عام ١٧٠٩ انتقلت الحرب الدائرة بين «سعدون بن غرير» و «الظفير» إلى مقاطعة «الهجرة» الواقعة ضمن الأراضي العراقية دون أن تسفر عن أية مكاسب تذكر لأي طرف. تميزت السنوات القليلة اللاحقة بهطول أمطار غزيرة، وجلبت عواصف مدمرة من حبات البرد، لكن نمت على إثرها مراعٍ خصبة وبيادر قمح وافرة ظهرت آثارها في هبوط خيّر في أسعار مستلزمات الحياة.

وفي عام ١٧١٤ تضامن «سعدون» مع «عبد الله بن معمر» من «العيينة» عناصر أخرى من «العارض» وشنوا حملة ضد مناطق «الخرج». هوجمت

«اليمامة» وسُلبت أملاكها، إلا أن هجوماً معاكساً قام به البجادي بصحبة أربعة خيالة فقط كان كافياً لحمل الغزاة على التراجع. واستمر توالي الأيام دون أحداث تذكر باستثناء حدوث حالات قحط وأمراض وفيضانات ومواسم حصاد خيرة... شملت أحداث الفيضانات تلك على أحداث شتاء عام ١٧١٤/ ١٧١٥ التي شهدت صقيع قاس.

وفي عام ١٧٢١ عندما دخل «سعدون» نجد بالقوة وأمضى كل فصل الصيف فيها، حاصر بدو «كثير» في مناطقهم ضمن حدود «العارض» وأدخل كل ما يحتاجه من سلاح لحصار وضرب كل من «عقربا» و«العمارية» اللتان عانتا من مجاعة خانقة. وقامت قوات «سعدون» بسلب حقولهما وأشجار النخيل فيهما. استحكم «سعدون» الآن في منطقة «الدرعية» وسلب خيرات واحات النخيل فيها ودمر العديد من المنازل في قرية «الظهرة» وفي «السرعة» وفي «الملوي»، إلا أن قواته مُنيت أيضاً بخسائر جسيمة بسبب الهجمات التي كانت يشنها الناس المحاصرون للدفاع عن ممتلكاتهم. من المشوق أن نذكر هنا أنه في خضم هذه الأحداث شهد «عبد العزيز» العظيم [١] ضوء النهار الذي طل عليه من خلال نافذة عليها حديد مشبك في قلعة «طريف».

تحرك «سعدون» مرة ثانية باتجاه نجد في أوائل عام ١٧٢٣ وداهمته المنية في أحد المعسكرات التي شيدها في «الجندلية» على طريق رمال «الدهناء».

(١) المقصود هو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود (المعلق).

كان «سعدون» قد قاد قبيلته وأدار ملكه بذكاء لمدة تزيد على ثلاثين عاماً. كان من سوء حظ أبناء قبيلته أن تخلى «سعدون» عن زمام القيادة في لحظة كان فيها الصراع من أجل الزعامة على الصحراء العربية على وشك أن يبدأ. سبب موته اضطرابات وفوضى وانشقاق بين رجال قبيلته التي انقسمت إلى فرق يدعم كل فريق منها زعيماً يدعى الحق في قيادة القبيلة. . . والحقيقة لم يكن أي منهم جدير بحمل شعلة القيادة من بعده. وكان الصراع الحقيقي بين أبناء «سعدون» أنفسهم، وكان «دجين» و «مانع» من طرف و«علي» و«سليمان» وهما ولدي «محمد بن غرير» (الشخصية التي خلفت «سعدون» في حكم القبيلة) من طرف آخر. والجدير بالذكر أنهما كانا من جيل «سعدون» نفسه وأبناء عمه من الجيل الثاني. وبعد مهاترات وتشابك بالأيدي كما يحدث بين حين وآخر سيطر مجلس العقلاء على الجميع واختير «علي بن محمد» زعيماً لقبيلة «بني خالد»، في حين احتجز ابني «سعدون» كإجراء تحفظي وقائي. ولم يكن لذلك الترتيب أن يدوم طويلاً دون حدوث صدامات. وقبل انتهاء العام قام «دُجين» بمحاولة فاشلة استهدفت حياة «سليمان» وهو أخو الزعيم الجديد المنتخب، وعليه قام «سليمان» بهجوم انتامي على أحد رجال «دُجين» المخلصين له لكنه فشل في تحقيق أهدافه.

استمر القحط المدمر الذي كان قد بدأ في عام ١٧٢٢ بكافة كوارثه حتى هطلت أمطار عام ١٧٢٤/ ١٧٢٥. أنقذت أمطار ذلك العام الغزيرة الوضع هناك: ففي الحجاز على سبيل المثال كانت أسعار المواد الغذائية قد وصلت إلى مستويات غير معقولة، علاوة على أنه لم يكن هناك شيء يشترى

لدرجة أن الناس أصبحوا يأكلون الحمير الميتة ولحم الجيف. ولسوء الحظ خلفت الأمطار التي هطلت إثر هذا الجفاف الطويل نوعاً من الآفة الصفراء التي أوقعت الكثير من الضرر بالزرع والمحاصيل. إضافة إلى أن موجات الجراد والحشرات القافزة زادت الأمر سوءاً. وضرب وباء الكوليرا الحاد منطقة «العيينة» والقرى المجاورة لها وأودى بحياة عشر سكان هناك. ونزح عن تلك المناطق كل من كتبت له النجاة من ذلك الوباء. أودى ذلك الوباء أيضاً بحياة الأمير العظيم «عبد الله بن معمر» وكانت وفاته كارثة لم تستطع إمارته أن تتعافى منها قبل أن يجرفها تيار الوهابيين. إن ما كان بالفعل مصادفة متميزة هو أن الأحساء والعيينة الندان الرئيسيان للدرعية: فقدا قيادتهما الحكيمة التي تجلت في وفاة زعيميهما، إذ حدثت تلك الوفاة في فترة كانت الدرعية نفسها تمر بموجة من الصراعات الداخلية اشتد التنافس فيها على زعامة كان من الممكن لمن يحظى بها أن يضيف صفحة مجيدة إلى صفحات التاريخ الإسلامي، وأن يضع أسس سلالة حاكمة وإمبراطورية لم تشهد مثلها الصحراء العربية منذ عهد ملوك سبأ.

يبدو أن «دُجين» إثر فشله في النيل من «سليمان بن محمد» قد صرف النظر عن الأحساء بشكل مؤقت. لكن قبل انقضاء عام ١٧٢٦ أو ربما في بداية عام ١٧٢٧ كان «دُجين» قد حظي بالدعم الكافي من «الظفير» و«المنتفق» ليقوم بمحاولة أخرى لاسترداد عرش أبيه. كانت الهفوف محاصرة ومضى على حصارها فترة من الزمن وكان البدو ممن تحالفوا مع «دجين» يجوبون أرجاء البلاد يسلبون الأرزاق ويقتلون العباد في القرى وفي واحات النخيل. لكن «علي» كان يفوز بالعمليات العسكرية ولم يكن أبداً

في وضع ضعيف يمكن أي شخص من أن يلحق به الهزيمة على أي حال. انسحب الغزاة بعد أن تم التوصل إلى هدنة بين أبناء العم المتحاربين وبقي «علي» الحاكم على الأحساء، وبدأ «محمد» فترة حكمه للدرعية. وكما ذكرت سابقاً كان «محمد بن أحمد بن عبد الله بن معمر» الملقب بـ «خرفاش» معاصراً لهما في حكم «العيينة».

بقي الآن أن نختم هذه المقدمة لنصل إلى أيام فترة «محمد بن سعود ولإنجاز ذلك علينا أن نستمر في سرد قصة «العيينة» منذ أن تسلم «عبد الله ابن أحمد بن معمر» زعامة القبيلة في عام ١٦٦١ وحتى الزمن الحاضر. يبدو أن فترة حكمه التي دامت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً كانت فترة هادئة، ولم تذكر السجلات التاريخية سوى حادثة اندلاع الحرب بين «العيينة» و«حريملاء» في عام ١٦٨٤، حيث شهد «عبد الله» المرحلة الأولى فقط من تلك الحرب وداهمته المنية بعد ذلك. ولا يتوافر لدينا معلومات تاريخية عن وفاته التي لابد أن تكون قد حدثت في عام ١٦٨٥. وخلفه في الحكم ابن أخته الذي هو أيضاً ابن «محمد بن أحمد بن عبد الله» الأول ويدعى «عبد الله» أيضاً. تميزت فترة حكمه بأنها كانت طويلة انتهت كما أشرنا سابقاً بوباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦.

أصبحت العيينة خلال فترة حكمه قبلة أنظار الصحراء العربية، ويعود الفضل في ذلك للجهود التي بذلها لتطوير الإمكانيات الزراعية إلى أقصى حد ممكن وللمساكن التي أمنها للتعداد المتزايد للسكان. تحسنت مرافق الخدمات في المدينة، والحقيقة الملفتة للنظر أن والده «محمد بن حمد» كان لا زال على قيد الحياة، إذ تؤكد سجلات التاريخ إلى أنه ذهب إلى الحج في

العام الذي تسلم فيه ابنه الحكم. إن مثل هذه الحالات ليست شائعة في أي مكان آخر. لكن تفاجئك الأحداث في الصحراء العربية إذ نجد أنفسنا أمام حالة متميزة تتلخص في أن والد ملك راحل كتبت له الحياة ليعيش ما يزيد عن ربع قرن يشهد فيه فترة حكم ابنه.

كان شغله الشاغل على ما يبدو الحرب التي بدأها سلفه ضد «حريملاء»، ولهذا - ومباشرة بعد توليه الحكم - سار برفقة «سعود بن محمد» أمير الدرعية ليخوضا معركة «المهيريس» التي يشير إليها سكان تلك المنطقة في حكاياتهم باسم «الكمين الأول». ونظراً لأنه سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع فسنكتفي بالقول بأن أهالي «حريملاء» مُنوا بخسائر جسيمة، ومع ذلك لم تحدث أية محاولة للهجوم على «حريملاء» نفسها. وبعد فترة قصيرة قام فريق من «حريملاء» بمهاجمة «القرينة» التي تقع على مسافة بضعة أميال في نهاية الوادي واستولوا عليها، ولكن في العام التالي واجه أهالي «حريملاء» هجوماً آخر شنه عليهم زعيم العيينة الذي جر بالحيلة المدافعين عن «حريملاء» إلى كمين وقتل عدداً كبيراً منهم. وكان ذلك ما عرف بـ «الكمين الثاني».

لم تثنيهم هزيمتهم وخسائرهم عن إقدامهم، بل قام أهالي «حريملاء» بالتحالف مع أمير الدرعية «محمد بن مقرن» ومع أمير الخرج «زامل بن عثمان» لغزو «سدوس»، وتدمير قلعتها.

لكن إما في عام ١٦٨٨ أو عام ١٦٨٩ انتهت الحرب بين العيينة وحريملاء على إثر مفاوضات سلام تمت فيما بينهما. وفي هذه الفترة كان «عبد الله بن

معمر» مواظباً وعلى مدى خمسة عشر عاماً تقريباً في تركيز اهتمامه على تطوير منطقته. ولم يسمح لنفسه بدخول تيار الحروب حتى عام ١٧٠٣ حيث هاجم منطقة «القرينة» واحتلها. وفي العام التالي حول أنظاره إلى «ثادق» وهي منطقة رئيسية مهمة، لكن عندما وصل بقواته إلى «البير» حال بدو «عنزة» بينه وبين غايته وسلبوا العديد من حيواناته التي كان يستخدمها للتنقل.

تعرضت «العيينة» في منطقة وادي حنيفة لفيضانات جارفة دمرت في طريقها العديد من المنازل وخلفت الكثير من الضرر بالممتلكات.

نعمت «حريملاء» وعلى مدى عشرين عاماً بالأمن، ولذلك السبب التقت إليها «عبد الله بن معمر» في عام ١٧٠٩ وهاجمتها بقوة، كان المدافعون عنها من بدو قرى «العارض» و«الصبي»، ودار هناك قتال ضار اضطر «عبد الله» للتراجع عنها. أبدى أهالي حريملاء - كما حدث سابقاً - ردة فعل شديدة وهاجموا أتباع عبد الله في تلك المناطق وداهموا واحات ملحم واحتلوها. لم يهاجم «ابن معمر» حريملاء مرة أخرى إلا في عام ١٧١٦ حيث عاث خراباً في ممتلكات أهالي «زغيب»، وعندما عاود الهجوم عليها بعد مضي عامين قتل عشرة من رجالها واستولى على عدد كبير من الأغنام التي كانت ترعى في أراضيها.

وفي عام ١٧٢٥ قاد ابنة «إبراهيم» حملة تكشف عن غزو واحات «العمارية» المجاورة وبقي فيها بعد أن فرض الاستسلام على أهلها. وبعد بضعة أيام تعرض «عبد الله» نفسه لغزو من قبل جماعة بدو «كثير» في «العسيقة». قتل في تلك المواجهة عشرون من رجاله ووجد «عبد الله» نفسه

مضطراً للهرب بشكل عشوائي تاركاً البدو المنتصرين يحاصرون «إبراهيم» في منطقة العمارية. وكانت تلك آخر حملة قام بها «عبد الله بن معمر»، لكن يجب أن نعترف وفقاً لدلائل إنجازاته العسكرية التي تحققت على مدى أربعين عاماً أنه لا يمكننا أن نصنفه بين عظماء المحاربين في عصره. إن السمعة العظيمة التي تحلى بها تعاظمت بالدرجة الأولى بسبب الإنجازات الإدارية والخدمات المدنية التي قام بها، وإن حال «العيينة» التي تركها لخلفه من الحكام هناك تقف كنصب تذكاري يشهد على تلك الإنجازات.

وكما أشرنا سابقاً أودى وباء الكوليرا بحياته في نفس العام الذي يقال إن الوباء أودى أيضا بحياة ابنه «إبراهيم». وعليه انتقلت الزعامة إلى حفيده الذي كان عليه أن يواجه قوة «الدرعية» المتنامية. لم يكن «محمد خرفاش» من الطراز الذي يمكن أن يحمل على عاتقيه مثل هذه المهمة. وبغض النظر عن حادثة «زيد بن مرخان» التي كان «زيد» نفسه مسؤولاً عنها، يمكن القول أن ردة فعل «محمد خرفاش» تجاه المسؤوليات المترتبة على الزعامة لم تكن واعدة، فإن إقالته لجده القاضي «عبد الوهاب بن سليمان» والذي كان يثق به كمستشار وكصديق كان تخبطاً لم يكن بالإمكان إصلاحه.